الصوفية والحرية

للاستاذ فوزى عرفة

(١)

مشكلة الحرية من أعمق المشكلات التى تصادف البشرية فى هذا العصر ومن أعقدها وما يكاد الإنسان يتحدث عن هذه المشكلة حتى يتملكه دوار عقلى عنيف ذلك لشعورنا بأننا نتناول صراع انسان مع الطبيعة والمجتمع والماضى والمطلق ، وقد حاول الإنسان أن يحطم هؤلاء الأغيار حتى يثبت لنفسه أنه حر فلم يلبث أن وجد نفسه وحيدا لا تستند حريته إلى شىء ! ثم خيل إليه أن لديه من الإرادة مايستطيع أن يبرهن عمليا على حريته فسرعان ماوقع فريسة لإرادة الفناء التى هى قضاء على كل إرادة ، وهل كان الانتحار دليلا على الحرية وهو الذى لا يمحو الماضى إلا بانتزاع صاحبه ولا يؤكد حرية الفعل إلا بالقضاء على كل قدرة على العقل ؟ .

هكذا كانت مشكلة المشاكل وسر الوجود الإنسانى الذى يمثل الصورة الكاملة للتأرجح بين العدم والوجود حتى انبهر منها كيركجورد فصاح فى غمرة يأسه « الحرية ذاك هو الأمر العظيم والهائل فى الإنسان » وحتى أنشد فيها أبو العباس السيارى قوله :

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مقلتاى طلعة حر

وحتى قال منصور الفقيه :

ما بقى فى الأنس حر لا ولا فى الجن حر
قد مضى حر الفريقين فحلو العيس مر

ويقينى أن الخطأ يتجلى فى دراسة هذه المشكلة عندما يدرسها المرء منفصلة عن الوجود الإنسانى بأكمله ذلك الذى يختلف من موقف لموقف ويتطلب تعدد المواقف تعدد المناهج والأحكام ، فإن لم يكن لنا عاصم من هذا الخطأ فإننا سنقع فى الزلل الواضح الصريح مهما نحاول أن نتشبث بطوق النجاة . ومن هنا تبدو مشكلة الحرية غير مفهومة عند قوم لأنهم يبدأون بتعريفها تعريفا جزئيا ينطوى على موقف إنسانى

واحد حتى إذا ماصدمتهم المواقف الأخرى المتعددة للحياة أبهروا ووجلوا وشعروا بالدوار والوهن وظنوا أن العيب فى المشكلة ذاتها أو على طبيعة الحرية ذاتها والواقع أن العيب يقع — جملة — على قصور المنهج الذى لا يساير مختلف المواقف .

أجل . إن الخطأ فى هذه المشكلة قريب إذا أخذت من وجهة نظر واحدة فإذا أعتبرها البعض معبرة عن مجرد مفهوم أخلاقى أو مجرد حقيقة متيافيزيقية لا سبيل إلى فهمها إلا فى الوجود الإنسانى بأكمله أو مجرد تجربة نفسية تشعر فيها الذات بوجودها وحريتها فإن هذا المنهج سيصطدم بالحتمية الاجتماعية والطبيعية ومن ثمة يقف دعاة هذه المذاهب والمتعصبون لها من الحتمية الاجتماعية والطبيعية موقف المحارب الذى ينكرون على أصحاب الطبيعة أو على أصحاب الاجتماع آراءهم وإنما ينكرون على الطبيعة الإنسانية المحضة أن تساير جميع المواقف التى توجد بها . الإنسان ليس مادة فقط ولكنه انفلاق وانبثاق المطلق ، الإنسان ليس أعصابا ولكنه شعور ووجدان وتوتر وانطلاق وتبصر واستنطاق ، إنه يمثل الفورة والثورة ولا يحتمل أن يخضع لجسده لأنه يعلم أن الجسد عائق لا يطيق ميله إلى المطلق ومن ثمة يتولاه الحزن العميق والألم الدفيق والتوتر اللانهائى الذى يصحب وجوده منذ يبحث عن المطلق فيجده أمامه ثم يريد أن يواصل لذته ويديم شربته ويطيل سكرته فإذا بجسده يجذبه إلى الأرض بجوع ويضنى ويتعب ويجهد ، فلا بدله من شبع وري وهدوء واستراحة .

هكذا كان الإنسان منذ الأزل طبيعة وحكما حتى يجوز المحنة ويقتحم العقبة ويصل إلى راحته المأمونة بعد طول عناء .

فماذا يريد أولئك الذين يقفون على أحد طرفى النقيض ويبدأون ؟ إنهم يهوون إلى الهاوية ولا ينجون . ويذهبون فى عمايات من الجهالة ولا يفيقون . ويظلون يرددون فى آناء الليل وأطراف النهار ألفاظا صماء وقوالب لا تلائم الطبيعة والفطرة وإن كانت تتمشى مع براهين العقل ومبادىء المنطق . إنهم يشكلون بناء منطقيا ساميا يستطيع أن يلغى الوجود المحسوس ويستطيع أن ينكر ضوء الشمس فى وضح النهار ويستطيع أن يقلب الحقيقة إلى باطل والباطل إلى حقيقة ثم هم بعد ذلك لا يستطيعون فى حياتهم إلا أن يعيشوا ويحيوا على طرق الناس وفطرتهم لأنهم لا يستطيعون من هذه الطرق والفطرة فكاكا .

لقد قضى أصحاب الحتمية على الحرية فإذا بهم أحرار فى القضاء على هذه الحرية ووقعوا فى ذلك الخطأ الذى وقع فيه أعداء الفلسفة قديما عندما أنكروها فرد

عليهم أرسطو بقوله « إن من ينكر الفلسفة فعليه أن يبرهن بالفلسفة أن الفلسفة غير مجدية » وهكذا تحرر الحتميون لينكروا الحرية وتحرر الميتافيزيقيون والنفسيون لينكروا الحتمية وبقى بعد هذا وذاك أمران لا يقبلان النقض : أولهما وجود الحرية فى كل حالة سواء كان المتحدثون فيها يريدون تفنيدها أو تأييدها وثانيهما أن الشطط إن كان مقبولا فى أمر فهو فى أمر الحرية أقرب إلى الخطأ وأدنى إلى الزلل وألصق بالضلال المحكة .

***

هكذا ينبغى علينا أن ننظر إلى مشكلة الحرية ، فهى عارض يعرض على الإنسان وهى ممارسة يقوم بها الفرد وليست جوهر الفرد كما أراد أن يوهمنا الوجوديون من أمثال جان بول سارتر ، وخطأ هؤلاء الوجوديين أنهم وحدوا بين الأنا والحرية فجعلوا الحرية مرادفة للفظة الأنا ولم يضعوا للأنين درجة تبدأ بأحدهما وتنتهى بالآخر مع أنهم يقررون مبدءا هاما إلا وهو الوجود سابق على الماهية ومعنى ذلك أن اختيارى للمواقف المتعددة وإقرارى للحرية وايمانى بها إنما يأتى بعد وجودى المادى والنفسى ومن ثم أبدأ فى ممارسة الحرية على الوجه الأكمل . أما قول سارتر « نحن أحرار سواء أعقدنا العزم على أن نكون جبناء أم نكون شجعانا ، إن هذا لا ينقص فى شىء من مسئوليتنا بل إن الأمر مخالف لذلك فى معنى من المعانى اذ أن هناك اختيار الجبن كما هناك اختيار الشجاعة وفى كلتا الحالتين هناك تقرير وحرية » فإن فيه مغالطة كبيرة ذلك لأن الاختيار ليس تقريرا للحرية وإنما هو دليل على أغلال الحرية التى تغلها بالواقع المحض الذى يعارضها فى كثير من الأحيان ، ومن ثمة كان الاختيار عملية انتقاء وانتخاب وموازنة بين القرارات الداخلية والإمكانات الخارجية ، ومعنى ذلك أن للكائن الحى إيمانا لا يدخله شك فى أن جريته موهوبة معطاة وليست واقعة مفروضة على عكس ما ظن جان بول سارتر ومن ثمة فإن الموجود يحاول أن يستعمل هذه الحرية للقيام بعملية التوازن بين الدافع الداخلى والجسد الإنسانى ثم الواقع الخارجى وبغير هذا لا أستطيع أن أخرج قرارتى الداخلية إلى فعل ملموس .

هكذا تدل عملية الاختيار على أن الحرية ليست مقولة مفروضة على الإنسان وإنما هى وسيلة ليحقق الإنسان كمال وجوده ويستطيع أن يوفق بين جميع مطالبه وغاياته فى توافق وانسجام حتى إن جان ڤال قال « إننا سوف نرى أن الحرية التى تبدو لنا فى الصف الأول فى بعض الأحيان إنما هى خاضعة مع ذلك إلى الضرورة بمعنى من المعانى وأنها صراع مستمر ضد الضرورة وأنها فى نهاية الأمر يتعالى عليها العلو » .

هكذا تصبح الحرية فى الدرجة الثانية من ناحيتين : الناحية الأولى ناحية الوجود الإنسانى فهى لاتظهر إلا بعد وجود الإنسان لا قبله ثم هى فى الدرجة الثانية من ناحية العلو إذ تدين له بالخضوع والاستسلام ويبقى بعد هذا وذاك اعتراف الإنسان بأن امتلاكه لهذا السلاح الجبار إنما يضع على عاتقه حملا كبيرا ينبغى عليه أن يجاهد فى حمله وأعنى بذلك شعور الإنسان بالمسئولية .

إذا كان الأمر كذلك فما هو أفضل مدخل يدخل به المرء لدراسة مشكلة الحرية؟ أعتقد أن أفضل سبيل يسلكها المرء هو دراسة الحرية على أساس المسئولية سواء كانت هذه المسئولية مسئولية أمام الذات أو مسئولية أمام المجتمع أو مسئولية أمام المطلق وأعنى بالمسئولية : الوقوف وجها لوجه أمام السلطة على اختلاف أنواعها سواء كانت هذه السلطة داخلية نفسية أو سلطة خارجية اجتماعية أو ميتافيزيقية إطلاقية ، ذلك لأن للشخصية الإنسانية فى الحقيقة داخل Un dedans (إن صح هذا التعبير) فى حاجة إلى خارج Un dehors ولكنها أيضاً داخل فى حاجة إلى فوق Un dessus تكتمل به أبعاد ذات لا تكف عن العلو على نفسها وعلى الطبيعة الخارجية أيضاً ، والحرية الإنسانية لاتتجلى بصورة واضحة إلا حينما تعمل الذات على تحقيق ضرب من التوافق بين أبعادها الثلاثة ألا وهى الخارج والداخل والفوق . والواقع أن من شأن « الذات الباطنة » أن تربط الحياة الخارجية التى تستمد منها الوجود والبقاء بالحياة العليا التى لابد أن تنفتح فيها وتزهر وكل محاولة لفصل تلك الذات عن ذلك الوجود الأسمى أو عن تلك الحياة العليا التى لابد أن يترتب عليها أن تجف تلك الذات وتذبل لكن لا تلبث أن تتلف وتفنى أما إذا تحقق التصاعد والتواصل بين تلك المجالات الثلاثة فهنالك تجرى الحياة حارة دافئة وينعم الإنسان بشىء من الاتزان والتوافق حيث يوفق بين جميع السلطات التى تقف أمامه خلال سنى حياته ويستطيع أن يجب مطالبها جميعا وقد أحسن كارل يسبرز الفيلسوف الوجودى عند ما درس مشكلة الحرية على أساس صلتها بمشكلة السلطة فكانت نتائجه أقرب إلى الواقع وأكثر التزاما للاتزان والتعقل ومن ثمة كان من المعقول أن تثير مشكلة الحرية ثلاث مشكلات أولها سيكولوجى والآخر اجتماعى والثالث ميتافيزيقى وأن يحاول من يتصدى لها أن يجمع بين هذه الشعب الثلاث فى تناسق وتوازن حتى يخرج بنظرية متكاملة وهذا ما فعله الصوفية وما سنراه فى مقال آخر إن شاء الله تعالى .